Journal of the University of Babylon for Humanities مَجلّة جَامعة بَابل للعُلوم الإنسَانيّة
Vol.33/ No.9/ 2025 المجلد ٣٣ / العدد ٩/ ٢٠٢٥

المسكوت عنه في الحكم والأمثال العربية

واضح بكّاري
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة/ جامعة منوبة/ تونس
baccariwadheh90@gmail.com

تاريخ استلام البحث: ٢٠٢٥/٤/١٣ **تاريخ قبول النشر:** ٢٩/ ٢٠٢٥/٥ **تاريخ نشر البحث:** ٢٧ / ٩/ ٢٠٢٥

المستخلص

لاقت الحكم والأمثال العربية انتشارا واسعا نظرا لخصائصها الفنية والمضمونية المميزة، فأثرت في السلوك البشري، وفرضت أنماطا ثقافية مطلقة لا تقبل النقد، لكن المتأمل في عدد منها يكتشف أنها تخفي جملة من القيم التي تهدف إلى إخضاع الإنسان وتشيئته، وتمنع رواج قيم بديلة قادرة على تحقيق إنسانية الإنسان وتخليصه من الجمود الذي كرّسه النسق الثقافي والإيديولوجي المتسرب في الأمثال والحكم العربية مُتستّرا بأدبيتها وجماليتها. واضطلع النقد الثقافي بوظيفة التحليل والمراجعة حين فرض منهجه منهجا بديلا من النقد الأدبي ليكشف مواطن الخلل التي استهدفت الإنسان في كل أبعاده الدينية والاجتماعية والأخلاقية... ويعمل على استبعادها وتحرير الإنسان. وينطلق هذا البحث من مدونة الأمثال والحكم العربية ليُبين خصائصها الفنية التي حجبت حقيقتها. ويسعى إلى كشف الأيديولوجي المتواري خلف المصرح به، ويفضح أثره في المتلقي، ويقدم سبل الخلاص منه ليحرر الإنسانية من قيود الثقافي والإيديولوجي.

الكلمات الدالة: المسكوت عنه، الحكم، الأمثال، النقد الثقافي، الأيديولوجيا.

The Unspoken in Arabic Proverbs and Sayings

Baccari Wadheh
Department of Arabic Language/ Faculty of Letters/ Arts and Humanities of Manouba. Manouba University/ Tunisia

Abstract

Arabic proverbs and sayings have gained widespread popularity due to their distinctive artistic and substantive characteristics. They have influenced human behavior and imposed absolute cultural patterns that are beyond criticism. However, a careful examination of some of these proverbs reveals that they conceal a set of values aimed at subjugating and objectifying Man, preventing the spread of alternative values capable of realizing Man's humanity and liberating it from the stagnation perpetuated by the cultural and ideological system permeating Arabic proverbs and sayings, concealed by their literary and aesthetic appeal. Cultural criticism has assumed the function of analysis and review, imposing an alternative approach to literary criticism to reveal the flaws that target Man in all his religious, social, and moral dimensions... and working to eliminate them and liberate humanity. This research draws on the corpus of Arabic proverbs and sayings to demonstrate their artistic characteristics that have obscured their true nature. It seeks to uncover the ideology hidden behind what is stated, expose its impact on the recipient, and offer ways to free humanity from the constraints of culture and ideology.

Keywords: Unspoken, Wisdom, Proverbs, Cultural Criticism, Ideology.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

١ – المقدمة:

الأدب مفهوم جامع تفرّع أنواعا وأجناسا متباينة، وتميز كلّ منها بخصوصية فنية ومضمونية أثّرت في انتشاره، وحدّدت درجة تقبّله ورواجه عند طبقات مختلفة الأهواء والأذواق. وقد صُنّفت أنواع منه أدبَ نخبة، التي تحتاج قدرات عليا من الذوق الفني والتحليل لتمثّل مقاصدها. ولم تكن بعض أنواعه الأخرى بحاجة إلى مثل هذه القدرات لكونها أدبا جماهيريا واسع الانتشار، يتميز بخصائص فنية محددة ومقاصد مضمونية واضحة. وكانت الحكم والأمثال العربية أبرز الأجناس الأدبية التي لاقت رواجا كبيرا عبر العصور، لما حملته من قيم وتوجيهات ضبطت بقالبها الفني البسيط السلوك البشري؛ إذ «الأمثال حكمة الأمم والشعوب، تبدو فيها نظراتها إلى الحياة، ومذاهبها في الأخلاق الفردية والعلاقات الاجتماعية، وأنها تكشف عن جوانب شتّى من حياتها اليومية، وكثير من عاداتها ومعتقداتها، وهي بهذا تفضل سائر الفنون الأدبية، التي لا تستوعب هذه الأمور كما تستوعبها الأمثال، ولا تفصّلها تفصيلها».[١:ص٢٤٩] ومثلت الحكم والأمثالُ العربية مجالا خصبا للدراسات الأدبية. وقد أُفيض القول في أبعادها الفنية والمضمونية حتى أصبح من العسير تحقيق إضافات معرفيّة في هذا المبحث.

لكن ذلك لا ينفي إمكانات بحثية مختلفة تكون الأمثال والحكم العربية موضوعا لها خارج الدراسات الرائجة، وتعمل على القطع مع الطابع الكلاسيكي مُمثّلا في النقد الأدبي، ومن هذه الإمكانات المتاحة دراسة نقدية ثقافية بديلة؛ «على أن مفهوم(الثقافة) هنا يأخذ بمقولة قيرتز في أن الثقافة ليست مجرد حزمة من أنماط السلوك المحسوسة، كما هو التصور العام لها، وأنها ليست العادات والتقاليد والأعراف، ولكن الثقافة بمعناها الأنثروبولوجي الذي يتبناه قيرتز هي آليات الهيمنة، من خطط وقوانين وتعليمات، كالطبخة الجاهزة، التي تشبه ما يسمى بالبرنامج، في علم الحاسوب، ومهمتها هي التحكم بالسلوك. والإنسان هو الحيوان الأكثر اعتمادا على هذه البرامج».[٢:ص٧٤] وتسعى الدراسات الثقافية إلى كشف جانب ظلّ خفيّا ومسكوتا عنه، ولم يلق العناية اللازمة في ظل سيطرة مطلقة للذائقة الفنية والمعنوية الكلاسيكية. فـــالدراسات النقدية الثقافية: «هي مفهوم حديث نسبيا بما ينطوي عليه من دراسة الثقافات الرفيعة والشعبية والفرعية والأيديولوجيات والأدب وعلم العلامات، والحركات الاجتماعية، والحياة اليومية، ووسائل الإعلام والنظريات الفلسفية والاجتماعية ونحوها».[٣:ص٥] وتكون الأبعاد المضمونية التي يمكن تأويلها انطلاقا من دراسة غير مباشرة للأمثال والحكم موضوعا لها؛ إنّها دراسة تنبني على «أن يتجاوز النص الأدبي، وأن يمضي إلى ما وراء هذا النص من عقلية أنتجته ليقع على آليات التفكير التي تحكمها».[٤:ص١٧] فهي لا تُعنى بالجوانب الفنية، وإنّما تجعل محور البحث الجوانب المضمونية غير المعهودة والخفية التي تعكس نمطا سريّا من المعاني، والتي تروّج لنسق يكرّس نمطا ثقافيا سلبيّا، يتسرّب بشكل غير معلن، ويصعب رصده والتقطن له. وتكون تأثيراته تراكمية ذات قيمة بالغة، تُنتج ذهنية صامتة تهدف إلى فرض نمط مخطط له مسبقا؛ نمط يتخفى خلف الأقنعة الفنية المُموَّهة والمعاني الغنائية التي تطبع الأمثال والحكم العربية، وتستقطب الاهتمام، وتُشوّش على كل دراسة نقدية حقيقية تعمل على تحليل المشروع الخفي وكشفه. إنّها دراسة تهدف إلى تحرير الإنسان من سجن الأفكار النامية التي صنعها بنفسه أو أسهم في تأبيدها وتبنّيها بلا وعي أو بلا مقاومة، وفي هذا يقول عبد الله الغذامي: «أوقع نفسه وأوقعنا في حالة من العمى الثقافي

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

التّام عن العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي، وظلّت العيوب النسقية تتنامى متوسّلة بالجمالي، الشّعري والبلاغي، حتى صارت نماذجنا الرّاقية – بلاغيا – هي مصدر الخلل النسقي»[٢:ص٨]، لقد حجب عنّا الجمالي عيوب الأدب، وغطّى ألاعيب المؤسسة الثقافية التي صنعت عالما مزيّفا تُروَّضُ فيه الجماهير وتُدَجَّن، وجعلها تُقبل بنهم على الأنساق المتوارية بلا وعي بحقيقة المسألة التي تتحوّل من مصدر حقيقي للألم والاغتراب إلى مصدر سعادة وهمية.

٢ – المُبرّرات النّظرية للمسكوت عنه:

الأنساق الثقافية ظاهرة وكامنة، ومن هذا المنطلق «يقوم النقد الثقافي على فكرة نقد الأنساق الثقافية التي تتنوّع بين الظاهر والمضمر، واختفاء المضمرة من خلف الأنساق الظاهرة».[٥:ص٤٢٩] ويتجلّى المسكوت عنه في الأمثال والحكم العربية المنتجة ضرورة لنسق ثقافي كامن وإيديولوجيا خفية، و«تشير في المعتاد إلى طريقة في التفكير خاطئة على نحو نسقي، إلى وعي زائف».[٦:ص٥] وتحجب نزعة توجيهية تسلّطية تتحكّم في الإنسان، فتوجّهه نحو مصير محتوم ومخطّط له مُسبقا، وتهدف إلى سلبه الحرية والإرادة والزجّ به في إطار جمعي شامل يُنكر الخصوصية الذاتية، ويعود ذلك إلى افتقار عدد كبير من الناس للاستقلالية وآليات التفكير الحرّ، الأمر الذي يجعل من السهل التأثير عليهم وتوجيههم والسيطرة على سلوكهم، خاصة في ظل محدودية التفكير النقدي لدى الجماهير، الأمر الذي يجعلها فئة تابعة منقادة، وتبدو في حاجة ملحّة إلى من يوجّهها وينير لها طريقا ظلّ مُموِّها زعمت سابقا أنه طريق الحقّ، فيعزّز استلابها وخنوعها بقدر تسلط الفئة السائدة. وتتبنّى هذه الطبقة أحيانا ما تسرّب من نسق ثقافي وإيديولوجيا، وتدافع عنهما، وتعكس قُوّتهما وخطورتهما وشدّة تأثيرهما في المحيط. فـــفي «التاريخ الإنساني نعثر على نفس الرّابطة: إذ ينتج عن أفعال النّاس شيء آخر غير ما يتوقعون أو ينجزون، شيء آخر غير ما يعرفون وغير ما يريدون مباشرة. إنّهم يحقّقون مصالحهم، لكن يحدث بجانب ذلك شيء آخر مضمر في الداخل، شيء لا ينتبه إليه وعيهم، ولم يكن في حسبانهم».[٧:ص٧] وتوظف هذه الطبقة وسائط عديدة لتمرير مشروعها. ويُعدّ الأدب أفضل أسلحتها التي تتشكّل طيّ أجناسه الأكثر رواجا والأوسع انتشارا، وهو ما يعجّل بتحقيق الأهداف النسقية. وتجعل الخصوصية الفنية للأمثال والحكم العربية الأفكارَ أعلق بالذهن، خاصة حين تُقتطع من النص الأصلي، بالإضافة إلى سهولة تداولها شفويّا الأمر الّذي يعمّق أثرها في المتلقّي ويُيسر توجيهها له، وتحكّمها في الذّهنية العامة عن قصد أو دون قصد، فتحجب المشروع الخفيّ بفعل وقع الجمالي الفنّي الذي يستحوذ على الاهتمام، ويُوقع الانبهار، ويعمل على تعطيل آليات الفهم والمراجعة والتحليل العميق. وأمام هذا الخطر الخفيّ تبدو الحاجة مُلحّة إلى مراجعة الأدب وخاصة الأمثال والحكم العربية ووضعهما تحت مجهر التحليل والنقد الموضوعي الفعلي لتخليص الإنسان من سلطة خفية طالما أمتعته عبر تفكيك نُظم النسق والإيديولوجيا، والعمل على كشف الوهم الذي تختزنه لتستطيع معالجته.

احتاج رواج المسكوت عنه في الأمثال والحكم العربية إلى قناع الجمالي؛ لأن «البلاغي والجمالي... ليسا مجرد ترف شكلي، إذ يجسدان كونا رمزيا له أبعاده الفكرية والواقعية، وهو ما ننطلق منه لصياغة مصطلح

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

(البليغ الثقافي)، الذي يؤشّر على الأبعاد الثقافية للخطاب الجمالي والفني»،[٨:ص١٠٩] وحجبت مضامينها التي تدغدغ مشاعر الإنسان وتُخدّره بالقيم والمثل العليا التي يطمح إليها، ويراها مطلبا يجب أن يتحقّق. وأسهم هذا القناع الجمالي والمضامين المثالية في منع الوعي بحقيقة الأفكار التي يحتملها الأدب ممثّلة في أبعاد النسق التي تكمن في المستويات الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية والفنية والعرقية والجندرية، والتي تهدف إلى التسلط والتحكم في الوعي الجمعي. ويستدعي كل ذلك سلطة ناقدة تُراجع هذا الخفيّ الخطير، وتعمل على تغيير الذهنية السائدة، وتبحث عن مخرج نحو مستقبل يقطع مع كلّ مظاهر التّسلط تحريرا للوعي الجمعي من قمع السلطة الخفية التي تسرّبت في ثنايا الجمالي الفني القائم على اللغة الرمزية غير المباشرة والتي طبعت الأمثال والحكم، يقول قطامش: «وهكذا كلّ الأمثال، لا يصرّح فيها بالمعاني المُرادة، وهي مضاربها، وإنّما يُكنّى عنها بعبارات وألفاظ تفيد معاني أخرى، وهي مواردها وأصولها. وتكتسب المعاني المُرادة من الأمثال بهذه الكناية وضوحا وإشراقا، وتكتسي حُللا زاهية من الجمال والبهاء».[١:ص٢٦٩] وتصبح الأمثال العربية أحيانا شعارات طوباوية لا تعبّر عن الواقع الثري القائم على تناقضات شديدة، والذي يرفض كل محاولات التنميط، إذ الحاجة ملحّة إلى الفعل الحقيقي الذي يؤثر في الإنسان ويغير واقعه؛ لأن التعلق بتلك الشعارات يبقى شيئا هلاميا يبتعد بالإنسان عن وظيفته الحيوية ومكانته الحقيقية.

وتتميز مصادر النسق الثقافي والإيديولوجي بالاختلاف والتنوع، ولعلّ أهمها السياسي الراغب في السيادة والسيطرة والاستمرارية التي لا تكون ممكنة إلّا في ظلّ ركود الوعي الجمعي وتخديره عن طريق الاختراقات الفنية غير المباشرة ليسود ويفرض هيمنته المطلقة، «ويضمر كل ذلك في نهاية الأمر افتراضا أخطر وأفدح، وهو أن جهة ما تعلونا جميعا، وتملك الوصاية على عقولنا وهي التي تحظى بتفويضنا للكامل، هذه الجهة، أي الحكومة، هي التي نناشدها ونرفع إليها التماسا لأنّها وحدها التي ستقوم بكل الإجراءات لدفع هذا الغزو الثقافي الأجنبي، وليس لنا، بوصفنا متقفين، أو لعقولنا من الأمر شيء».[٣:ص٣٥] وتحتاج السلطة السياسية الفنّ لتمرير نسقها بهدف الاحتواء والسيطرة ومحاولة القطع مع الأساليب التقليدية القائمة على العنف والتسلط المادي للتحكّم في عناصرها داخليا، ومنع تسرب كلّ ما من شأنه تنبيه الوعي وتغييره، فتوظف السلطة السياسية قُوّة الفني المعنوية من أجل استمالة المتلقّي، فيبهره المشروع ويتبناه ويدافع عنه. وتعتمد أحيانا أخرى سياسة الترهيب فتُجنّده، رغما عنه، مُنفذا لمشروع الاحتواء والسيطرة. وقد تلجأ هذه السّلطة إلى المراوغة لجعل المبدع يقوم بهذا الدّور دون وعي بحقيقة المسألة وخطورتها، فيصبح ضحية مثل السواد الأعظم من الجماهير. ويمكن أن يتنازل المبدع عن وظيفته في إنارة الرأي العام إذا لم يلق تجاوبا أو حين تغريه السلطة أو حين تخضعه، فيضطرّ إلى المهادنة والتراجع عن مشروعه التوعوي مجبرا من أجل مجاراة الثقافة السائدة، وتحقيق رغبة الجماهير القانعة بالواقع الوهمي والرافضة للتغيير.

وتكون سلطة العقل والفنّ مُمثّلة في النخب الثقافية مصدرا للنسق الثقافي والإيديولوجي وهدفا تفرضه سلطة النخب المُغترّة بوهم المعرفة المطلقة، وتلجأ إلى صناعة النسق الثقافي وتمريره وفرض سيادتها، سلاحها في ذلك الفنّي المُغرق في الجمالية مُمثلا في الجنسين الأدبيين الأكثر انتشارا ورواجا وتأثيرا في المتلقي وهما المثل والحكمة، إذ أنّ «أخطر ما تمارسه النخبة هو صناعة المفاهيم التي تكون وظيفتها القيام بفرز ثقافي ذي

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

نزعة إقصائية».[٨:ص٨٥] وهي جملة من المفاهيم التسلطية الإقصائية، التي تجد مساندة مطلقة من صانعي النسق الثقافي الذين يعملون على دعم أصحاب السلط المختلفة وإقناعهم بأحقّيّتهم في السّيادة والتسلّط، فتتصلّب تبعا لذلك مواقفهم، وتغرّهم مكاسب الواقع وتصبح حقيقة لا تقبل المراجعة والتّراجع، بقدر ما تطلب مزيدا من السيطرة والتحكّم، وتعمل فعلا معاكسا تُقنع فيه الطرف المُستضعَف بسلامة موقفه لتُؤكد استلابه. إن دور صانع النسق – مُنشِئ النصوص الفنية – هو دور مركب؛ يوهم بقدسية ما يصدر عنه من حكم وأمثال كونها ناتجة عن تجربة إنسانية عميقة خبرت الحياة، وحوّلت عصارة تجربتها إلى قوانين، ويوهم الجماهير بأنّها تجربة مطلقة في الزّمان والمكان، ودون أن يحيل على خصوصيتها وارتباطها بسياق معين. يصدر كلّ ذلك عن تضخّم ذات المبدع وادّعاء المعرفة المطلقة والقدرة على التحكّم في المُتلقّي حتّى يُقرّ بعجزه عن خوض تجربة الحياة مُستقلا مُتحرّرا دون توجيه ودون تأثير، فتُتاح له الفرصة لتمرير مشروعه الخفي المحمّل بالأنانية والأصوليّة... ويصبح مجال صراع بين المبدعين، كلّ يدافع عن مشروعه السياسي والثقافي... الذي يُحدّد مكانة المبدع الإيديولوجية بدلا من مكانته الفنية، ويُعزّز ذلك بخطط فنية منها اقتطاع المثل والحكمة من سياقهما التاريخي والحكائي ليوظفهما توظيفا خاصا يخدم المشروع النسقي. ويعمد المنشِئ إلى إخفاء ما يصلهما بواقعهما التاريخي، فيُغيّب قصدا الأسماء وكلّ ما يُحيل على المرجعية الواقعية والتاريخية. وقد يؤلف قصصا خيالية لتبرير الحكمة أو المثل حتى يتعاظم وقعهما وتأثيرهما في المُتلقّي. ويعمد أحيانا إلى نشر قيم غير أصيلة وتزييف أخرى. ويُبرّر وقائع وسلوكات غير مقبولة فتُحبَّب إلى النفوس تدريجيا، وتصبح سلوكا واجبا، يُعدّ الخروج عنه كفرا بالقيم السائدة ما يُوجب العقاب.

تُعزز عوامل ذاتية وخارجية استلاب الإنسان الضحية، فتجعله هانئا راضيا رافضا لأي تغيير، لأنه يراه تنازلا عن واقع يخاله متوازنا. وهو لا يعي الحقيقة التي حجبتها عنه خطط مدروسة تسرّبت عبر الزمن، وغيّرت تمثّله للحقائق حين جعلته يرى الحقّ باطلا والباطل حقّا. إنّها محاولة لقلب الموازين والحقائق تصلنا بما يُفترض أن نُقاطع، وتُنفّرنا ممّا يفترض أن نتبنّى، وتُلجِئُنا إلى حيل بديلة من المباشرة والمواجهة لتحقيق الهدف، فنصبح أميل إلى الخداع والكذب، راغبين عن الأمانة والصدق، نبرّر القوة والعنف، ونعمل على زرع الخوف في الآخرين، مدافعين عن القمع والصمت والتلاعب بالألفاظ والكلمات واتخاذ الزيف طريقا لتحقيق أهداف تبدو مُلحّة، لكنّنا لا نعي حقيقة خطورتها التي قوّضت الإنسانية في غفلة من العقل الناقد. فهذه القيم السيّئة أسلحة النسق الثقافي لتغيير الذهنيات والأمزجة وتغيير الحقائق الأصيلة وإحلال أوهام بديلة محلّها.

ويظهر تأثير الإيديولوجي أيضا في تهميش الخصوصية الفردية، وتكريس النمذجة المجتمعية التي ترفض الاعتراف بالخروج عن الإطار الجمعي المُحدّد مُسبقا ما يُيسّر عملية التحكم، فـ «النص يكون خاضعا للنسق الثقافي الناسخ الذي لا يعترف للآخر بأحقيته في الوجود وفي تقديم قراءة مختلفة».[٨:ص٩] وذلك ما يُؤبد الوثوقية التي تطبع خطاب بعض النُّخب، لذلك كانت الحاجة مُلحّة إلى كشف مكامنها في النصوص الأدبية وفضحها تحريرا للإنسان وتحقيقا لخصوصيته وفردانيته.

هذه جملة من العوامل التي استحوذت على الثقافي وحوّلته إلى نسق ضمني غير معلن، ومن خلاله «أصبحت ثقافتنا مشوهة وغير متوازنة، وأصبحنا نحن "بغير" وعي ضحايا»،[٩:ص٩٨] وجعلت الإنسان مُستلبا خاضعا لسلطة متعجرفة، محت خصوصيته ونزعته الفردية، وجعلته ضحية للنسق، لأنّه استوعب هذه الأفكار

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وتبنّى خطط النّسق، وانسجم معها، وجعلها مجالا يُحقّق إنسانية الإنسان الوهمية، و«هذا يعني أننا نحن كقراء مسؤولون عن هذا الصنم الذي ابتكرناه لأنفسنا، وابتكرته الثقافة من أجلنا، وصار حالنا كحال الرعايا حينما يصنعون طغاتهم عبر التصفيق لهم، فيدفعون الطاغية إلى الرضا عن ذاته وطغيانه، وإلى مزيد الطغيان. إن الجمهور الراضي والمصفق يربي سيده على مزيد من الغلو والغرور»،[٢:ص٢٦٨] فيصبح الضحية عنصرا مساعدا للجلاد في تحقيق أهدافه.

واستوجب الخلاص من كلّ ذلك عقلا حيّا وفكرا متحفزا ينشد سبل الحرية، ويشحذ الهمم، ويضع الخطط النظرية والعملية من أجل دحر الوهم الجاثم؛ «ومعنى ذلك أنّه كان عليهم أن يشتبكوا في صراع ضد الافتراضات العتيقة الراسخة التي يزيحونها عن حصونها»،[٦:ص١٤] فقد تمكنت تلك الافتراضات من إثبات نفسها وتحصينها حتى خلنا أنها الحقيقة الأزلية؛ لأنّ التخلص من سلطة الثقافي تستوجب المداومة ومقاومة الذات وتحدّي الآخر من أجل كشف الحقيقة ودحض الأوهام التي عبّر عنها العروي بقوله: «الوعي الزائف، أي الأدلوجة»،[٢:ص٤١] تلك الأوهام التي تسرّبت ثُمَّ ترسّبت، وأصبحت في نظرنا حقيقة مُطلقة، في حين أن الحقيقة المطلقة تحتاج منهجا وبحثا دقيقا يُرجع للعقل سلطانه وللإنسان إنسانيته المتفردة المتحررة التي تأبى التبعية لأي سلطة خارجية أو ذاتية، وتسائل الموروث، وترفض التسلط والخضوع للآخر.

٣ – نقد المسكوت عنه ومراجعته:

لمراجعة المسلمات الثقافية ونقد المسكوت عنه ومقاومته نحتاج أوّلا فكرا نيّرا ومستقلا وحُرّا ومُتمكّنا من آليات اشتغال منظومة المسكوت عنه الفكرية وقادرا على كشفها وتحليلها، لأن «النقد يستلزم ربط الأفكار بأهداف ومصالح الفئات الاجتماعية»،[٢:ص٦٠] لتنكشف حقيقة المشروع وتُمكن مقاومته. يقول عبد الله الغذامي: «من هنا فإنّه من الواجب النظر إلى فعل الإمتاع نظرة إشكالية تضع المتعة مع غيرها من الأفعال العمومية البشرية من الخبرات والسلوكيات ممّا هو استجابة لبواعث نسقية، الأمر الذي يتطلب التساؤل عمّا إذا كان فعل الإمتاع يدفعنا إلى حياة أفضل وإلى مجتمع أفضل، أم أنه يزجّ بنا في أتون الفعل اليومي الذي يفعل فعله في إخضاعنا وإذلالنا».[٢:ص٢٤] ونحتاج ثانيا إلى فهم حقيقة اللغة المجازية الفنية التي تحتمل قراءات متعددة، فتبدو الطريق واضحة لمن يريد الاكتفاء بالجمالي والارتهان له ولمن يُميّز بين الجمالي وما يحتمله من أنساق خفية تحتاج عُدّة مسبقة تمهّد للنجاة والخروج من الاستلاب نحو الإنسانية الواعية المسؤولة. ولا يعني ذلك أن الأنساق التي يستوعبها الفن سلبية مطلقا، إذ يجمع أحيانا بين الإيجابي والسلبي وهو ما يستدعي حالة عليا من الوعي الفني والثقافي والمعرفي لإدراك هذه الحقيقة، يقول عبد الله الغذامي: «وعلى الرغم من وجود صفات أخلاقية وجمالية راقية في الشعر يحسن بنا أن نتعلمها وأن نتمثلها، وهي ما يبرّر دعوات تعلم الشعر وتربية الناشئة عليه، إلّا أن فيه صفات أخرى لها من الضّرر ما يجعل الشعر أحد مصادر الخلل النسقي في تكوين الذات وفي عيوب الشخصية الثقافية»،[٢:ص٩٨] فالحاجة ملحّة إلى الحدّ من سلطة العاطفة والوجدان وإحياء دور العقل ليفحص الثقافي والإيديولوجي المُتسرّب في الأمثال والحكم العربية فحصا حقيقيا، وتفتح باب المراجعات لتُنزّل الأمثال

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

والحكم العربية منزلتها الحقيقية دون إفراط ولا تفريط تجاوزا لمنزلتها عند الجماهير إذ كانت «للأمثال العربية قداستها في نفوس الناس، ولها سلطانها عليهم، بما تتضمنه من أحكام يرتضونها، ويجمعون على الإذعان لها، حتى إنهم يستشهدون بها في شتّى المواقف، فتصدع بالحق، وتحسم الخلاف»،[١:ص٢٥٠] إذن فمحك المراجعات المتعقّلة هو السبيل الوحيد لتحرير الإنسان من وهم الإيديولوجيا.

تجلّى النسق الثقافي والإيديولوجي المتسرّب عبر الأمثال والحكم العربية في مستويات عديدة تستهدف أبعاد الإنسان المختلفة، ويعمل النقد على تحرير هذه الأبعاد من الطبقية الاجتماعية القائمة على أقلية مسيطرة فرضت سلطتها على السواد الأعظم من المجتمع حين زرعت ثقافتها وسياستها لأن «أفكار الطبقات السائدة هي الأفكار السائدة في كلّ العصور. وبعبارة أخرى فإن الطبقة التي تشكّل القوة المادية السائدة للمجتمع، هي أيضا قوّته الروحيّة السائدة».[٧:ص٣٢] ثمّ تتجاوز هذه الهيمنة نحو نوع آخر من التفرقة أساسها جغرافي يتمثّل في صراع الحضر والبدو، وتُنشئُ تمايزا غير موضوعي كالعِرق والجنس واللون والدين، فتصبح الحاجة ملحّة إلى وضع الأمور في مقامها الحقيقي بنزع التمايز ومنع أسبابه الثقافية، والعمل على كسر سيرورة النسق الثقافي والإيديولوجي بكشف عيوبه، وتأسيس نسق بديل يحيي الفاعلية الموضوعية، ويُفعّل سلطة العقل ليسترجع المهمّش دوره الفاعل والمؤثر بعد أن يُسائل جميع الأفكار ويعالجها بموضوعية دون النظر إلى مصادرها سواء رفعها النسق المُتكلّس أو حطّ منها.

وينتقل النسق من إطار المجموعات البشرية إلى النزعة الفردانية، ليُنصّب المبدع الفني – صاحب النسق – نفسه إلها يتحكّم في مصائر الآخرين الذين يراهم دونه وعيا، ويحتاجونه لينير لهم الطريق ويحقق السيادة والفوقية، لأنه«تتحكم فيه الأنا المتوحدة والمُلغية للآخر مثلما هو خطاب مُسخَّر للمصلحة الذاتية والآنية»؛[٢:ص١١٠–١١١] فيبدو الخطاب ذاتيا أنانيا لا يعترف بوجود الآخر مستقلا دون أن يأخذ بيده ويوجهه. وعلى هذا النحو، تنصهر الذوات الأخرى في ذات المبدع صانع النسق والمتحكّم فيه فتولد الشخصية النسقية وتُهيمن. ويُؤدي تغلغل النسق إلى نصرة الذاتي والتصدي للآخر من أجل السيطرة على المجموعات البشرية.

وقد يُغيّب النسق أحيانا الأخلاق، إحدى القيم المحددة لماهية البشر، حيث الأبعاد الوجودية الحقيقية للإنسان، فينتج كائنا مغتربا عن نفسه وعن المجتمع، ويحصر الإنسان في بعده المادي دون مراعاة الجانب الإنساني فيُعامل بقدر الكسب المادي إنتاجا واستهلاكا.

وفي المستوى الاجتماعي تلجأ السلط المختلفة: الاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية... إلى التخويف واستئصال الإنسان من بيئته الأم. ويبلغ الأمر ذروته حين يتهم الفرد بالخيانة؛ خيانة النظم الاجتماعية السائدة ونظم النسق التي تُكرّس الخضوع والخنوع، والتي كانت تُشعره بالأمان على الرغم من رغم أنّه يحيا غربة فعلية، لكنّه لا يعي حقيقتها لأنها غربة جمعية تكرس سلطة النموذج الواحد، قياسا إلى الغربة الفردية التي تكشف حقيقة الوضع وتمثل بداية الوعي وهو ما يتطلّب نوعا من المواجهة التي تهدف إلى التحرّر، لكنها تفشل غالبا بفعل العوامل الذاتية والموضوعية التي تُجهض عملية الوعي في بدايتها.

وإن كان السعي إلى النمذجة ونبذ الاختلاف والخصوصية الفردية والمجتمعية هدفا أساسيا للنسق الثقافي الذي يكرّس سلطة النموذج الإيديولوجي فإن ذلك لا يعني القطع كُلّيا مع الاختلاف، بل يحافظ على ما يعزّز تكلّس

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الوعي وإغفال حقيقة الوضع الراهن: راهن موت الأبعاد الإنسانية، ومنع صحوتها بزرع التفرقة بين الأفراد والمجتمعات وجعلهم في حالة مواجهة، ويمنع وحدتهم التي قد تؤدي إلى حالة من الصحوة الجماعية التي تنتج وعيا جمعيا يُتوقّع أن يكون سببا للثورة على الواقع، ويهدف إلى بناء واقع بديل يُحرّرهم من الخنوع ومن السلطة الثقافية، وهو ما تعمل الإيديولوجيا والنسق على منعه ببث عوامل الاختلاف بين الأفراد والمجموعات، فتسيطر علاقة العداوة بينهم عبر دسّ المكائد والتهديد والتخويف والتبرير.

ويعمل الإيديولوجي على تشويه الحقائق المُنتجة للقيم العليا والمبادئ الإنسانية الأصيلة واستبدالها بقيم دخيلة في محاولة لضرب الأسس وتقويضها تمهيدا لنسق بديل. ويتسرّب النسق أحيانا أخرى عبر بثّ الوهم فيما يُعتقد أنها مثل عليا غير قابلة للإنجاز على أرض الواقع فتُبهر المُتلقي، وفي غفلة انبهاره هذه تُمرّر المشاريع الحقيقية، فيوهم ظاهر الفعل بالإيجابية وتكون الحقيقة شيئا آخر يخالفه تماما. إن في إشاعة الأمثال والحكم العربية إيهاما باكتمال إنسانية الإنسان التي تبقى في حقيقة الأمر مجرّد وهم بعيد المنال. فهي تهدف إلى صرف الإنسان عن حقيقة واقعه المعيش الذي تُهيمن عليه الأنساق الثقافية، فيغفل عن اكتشاف حقيقة الأمور وإمكانية التغيير والإصلاح ما يجعل الانعتاق من الواقع أمرا غير ممكن في ظل التوجيه المسلّط على إرادة الفرد والمجتمع من قبل سلطة ثقافية تمتلك إرادة التحكم تخطيطا وتنفيذا. ذلك أنّها تُوجّه المتقبل نحو مسائل تختارها وتحجب عنه ما تريد، فينشأ خاضعا للمشروع الثقافي الذي يبحث عن تموقع يحقق أهدافا دون أخرى، ويهدف إلى فرض ما تمّ استحضاره واستبعاد ما غُيّب لتحقيق المشروع الإيديولوجي.

وتسيطر الرغبة في إدامة النسق سلطة متحكمة في الذات المستهدفة التي تستكين للوهم وتراه حقيقة مطلقة. وقد تتحوّل إلى مدافع شرس عن هذا المشروع في ظل محدودية الوعي، وبفعل اختراق المشروع الثقافي القويّ الكامن الذي ينتقل من التخطيط إلى التنفيذ. ويشعر الإنسان بحاجة مُلحّة إلى المحافظة عليه؛ فـ «نجد القريحة الشعبية لا تزال حريصة على إنتاج فلكلورها، ووضعه في وجه أي تيار يريد أن يجرف هذه المواريث والتقاليد».[١٠:ص٦٧] ولعلّ خطورة النسق تبلغ أقصاها حين تُخضع من استهدفه المشروع وتجعله يشعر بالفراغ دونه، لأنه يفتقد أثر هذه السلطة المعنوية التي يخالها جزءا من كينونته وإنسانيته. إنّها الرجعية الثقافية الذاتية والجمعية المعبّرة عن رغباتنا الكامنة والتي نطمح إلى تحقيقها على الرغم من أنّها تطمس ذواتنا الفعلية، وتجرّنا نحو مجتمع القمع والجمود.

إذن فالنسق الثقافي السائد يكتسب فاعليته من ثنائية متقابلة في الظاهر لكنها متكاملة بشكل غير معلن وغير مباشر تحقيقا لأهدافها؛ «لقد حوّلت المؤسساتية الجامدة الثقافة الجماهيرية الحديثة إلى وسيط لخيالات تتجاوز حدود ضبط النفس وتوازنها. فالتكرارية، والتطابق مع الذاتية، والانتشار الكلي... للثقافة الجماهيرية، الحديثة، تنحو نحو جعل ردود الأفعال آلية، وإضعاف قوى المقاومة الفردية»،[٩:ص٨٣-٨٤] فهي تنتج عن وعي نخبوي عبقري مسيطر ووعي جماهيري مستلب، يزعم فهم الواقع والقدرة على الفعل، لكنّه لا يعدو أن يكون مجرّد مُتلق سلبي تغيب عنه إرادة الفكر والفعل، ويعجز عن المواجهة والتحدي وعن كشف الكامن وفهمه بفعل هيمنة الشبكة النسقية، يقول عبد الله الغذامي: «هذا تشخيص دقيق لفعل النسق بالشخصية السلوكية والثقافية، وفي اختراع الشخصية النسقية، حيث تأتي فكرة (الأول هو الأكمل)، وفكرة الرغبة في امتلاك المجد عبر الثناء على

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

صفات يجري امتلاكها بالشراء، وتكون القوة سببا للظلم والتجبر، مع اعتماد الذات على قيم القول والادعاء، لا على قيم العمل، ويجري التعالي على قيم العمل واحتقارها اعتمادا على مجد مفروض بالقوة البلاغية والمالية وقوى التسلط»،[٢:ص١٨٩] فيتم التعامل مع القضايا ذاتيا وعاطفيا لا على أساس العقل والمنطق. ولأنها كذلك، كثيرا ما تعارضت معاني الأمثال والحكم لتتأكد نسبيتها وارتباطها بمقام معين وإن وافقت أحيانا مقامات أخرى، فذلك لا يجعلها مطلقة قابلة للتطبيق في المقامات المختلفة زمانا ومكانا. ومن مظاهر تعارض الأمثال ما ذكره قطامش في اختلاف النظر إلى حيوانين هما: الربُّع والرخمة، فقال:«أن أكثر العرب كانوا يحمقون هذين الحيوانين، بينما يدفع عنها الحمق جماعة منهم، فهي وجهات من الرأي والنظر».[١:ص١٨٨] لكن هذا التعارض لا ينفي عنها أحيانا طابعها العام، الذي حوّلها إلى ما يشبه قوانين ملزمة حكمت الإنسانية وأكسبتها طابعا قدسيا ينبع من تجارب كلية خضعت لميزان العقل، لنسلم بها جميعا، فتصبح منفذا تتسرّب عبره الإيديولوجيا والنسق دون وعي منا، فنضفي عليهما – على الرغم من سلبيتهما – ما اعتدنا أن نضفيه على الحكم والأمثال مطلقا دون فرز ودون تحكيم سلطة العقل.

ولئن حاول النسق الثقافي والإيديولوجي الكامن في الأمثال والحكم العربية نمذجة الفرد وإلغاء خصوصيته وفردانيته، فإن الوعي المتحفّز المدرك لحقيقة الأعمال الفنية وما تخفيه من أهداف متوارية قاوم ذلك واتخذ الخصوصيات البشرية الممثلة في العواطف والانفعالات والأحاسيس وتجارب الحياة والتكوين النفسي والمكتسبات الثقافية والانفتاح على التجربة الإنسانية عموما... هدفا لتوعية الإنسان وتحريره وتحقيق إنسانيته، يقول العروي: «إن الأفكار أوهام تخدعنا بها الرغبة الإنسانية لتصل إلى هدفها. وتعريّة الأوهام من صبغة الحق التي يلصقها بها العقل المخدوع هي واجب العلم»،[١١:ص٥١] فالبحث في هذه الجوانب المغفلة، والعمل على استنهاضها من جديد هي آلية لإحياء جوهر الإنسان وتخليصه من القيود الثقافية التي فُرضت عليه، أو التي تبنّاها دون مقاومة ودون وعي بحقيقتها ليكتشف الإنسان نفسه من جديد باكتشاف القيود واكتشاف أبعاده وتحريرها من الوهم. وتكشف أيضا حقيقة من يقف وراء النسق، وتفضح زيفه وأهدافه ذات النزعة الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية أو الدينية أو غيرها من السلط المادية والمعنوية. فالنسق نزعة فردية أو فئوية تخدم مصالح أقلية سائدة على حساب أكثرية تابعة تخضع لممارسة العنف المعنوي غير المباشر الذي يُلحق بالضحية قهرا ماديا ونفسيا ويحُول دون إمكانية التحرر والمواجهة. وتُمعن سلطة النسق في بطشها حين تبرّر أخطاء الظالم وتسلطه، وتزيّف الحقائق، وتفسد الذهنية السليمة وتجعلها ذهنية مُختلّة تحول دون تدارك الوضع المتأزم، ولا يؤدي فيها المبدع وظيفته الأساسية في مراجعة مواطن الخلل وكشفها لأنّ «المثقّف الحرّ من كلّ انتماء طبقي هو الذي يصل إلى الوعي الصادق وإلى الموضوعية»،[١١:ص٥٩] وهو الذي يدرك حقيقة النسق وعلاقته بالمقام في كلّ أبعاده السياسية والاجتماعية والاقتصادية... ويتحقّق ذلك ضرورة بفهم الواقع وتحليله تحليليا موضوعيا يكشف مكامن الصدق فيعززها، ويفضح مواطن الخلل فيستبعدها. ويبقى الهدف الجوهري هو تخليص الأدب من التوظيف النسقي والتسلط الذي يواجهه طواعية وغصبا، ويحاول إرجاعه إلى أصوله الفنية والمعنوية التي تتصل بحقيقة إنسانية الإنسان، ومرافقته ظاهرا وباطنا منعا للانحراف. لقد «بدأ الشعر فاعلية أخلاقية اجتماعية ترتبط بعقيدة الدولة ومصالحها، ولذا لا ينظر إليه لذاته، أي لجماله وفتنته، وإنما إلى ما يحمله من أفكار، وما يفيد به

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

المجتمع»،[١٠:ص١٠٦] وتدعو الضرورة إلى كشف الأسباب الرئيسية التي جعلت هذا النوع من الأدب يطبع الثقافة العربية، ويفرض نموذجا اجتماعيا مُوحَّدا يكرّس الاستلاب، ويفرض سلطة النخب السياسية والاقتصادية وغيرها من السلط، ويوجه الاهتمام نحو المسائل الهامشية، ويحجب المسائل الجوهرية في عملية تحكّم غير مُعلنة، ومن أجل منع الجدل الفكري ومشروعيّة الاختلاف، لذلك تم توظيف أوجز الأجناس الأدبية وأكثرها انتشارا، ليسهل تمرير الأفكار تحقيقا للمشروع الإيديولوجي الذي يُكرّس العلوية الطبقية، والتي تُعزّز بنزعة شعوبية تُهمّش التاريخ، وتفرض واقعا جديدا في ظل ركود فكري وقيمي وهيمنة المسائل الهامشية، فتُبرز أمثالا وحكما وتُغفل أخرى لتخفي حقيقة النسق الثّقافي المختلف، وليتأكد التخطيط الذي يهدف إلى خدمة نسق يُمثّل غاية المتحكم في العملية الثقافية ومحاولته إنجاز المشروع الثقافي المنشود في الأمثال والحكم العربية بفعل فنيتها وبساطة معانيهما ووضوحهما، وهي عوامل تُعزّز فاعليتهما النسقية، وتأثيرهما في المتلقي الذي يتجنّب ما عسرت معانيه وأشكلت ألفاظه وأساليبه الفنية مُمثلا في أدب النخبة.

٤ – تجليات المسكوت عنه في الأمثال والحكم العربية:

تجمّلت الأمثال والحكم العربية بقناع فنّي مخادع لتروّج أفكارا وتنصّبها قيما عليا لا تقبل التشكيك. وأثبتتها قوانين جازمة يُعدّ كل خروج عنها خروجا عن النظام المقدس الذي يحكم المجتمع، إذ تنحرف بوصلة الفرد، ويتحوّل العقل الذي يفترض التطوّر والإبداع إلى عقل صنيع يحلّ مكان العقل الناقد والمبدع، فتسود أفكار السلف في غير زمانها. ويصبح إنسان اليوم مرتهنا لمنجزات القدامى، يسعى إلى تقليدهم والسير على دربهم، ويعطل ملكة التفكير حتى لا تتحقّق فرادته ومشروعه الوجودي. ويكتفي بالتلقين وترديد ما سبق، ويُسقطه على واقع مختلف، يعمل على إخضاعه وإن تطلب الأمر جهدا كبيرا من التعسّف على الذات ومحاولة مطابقة هيكل جديد لنظم بالية زمانا ومكانا.

يختار النسق الثقافي والإيديولوجي لتمرير مشروعه وفرضه جملة من الخطط والاستراتيجيات. ويتدرج في توظيف وسائط مختلفة، ويجعل الأولوية لذات التأثير الأكبر، والتي تستهدف أكبر شريحة مجتمعية ممكنة، ويكون المقدّس الديني أوّل هذه الوسائط. ولأنّه لا يمكن أن يوظف النص القرآني الذي يُمنع التصرف فيه ما يجعل نتائج كل محاولة في هذا الإطار عكسية تستهدف صانع النسق، وترد الاعتبار للنص المقدّس، فإنه ينزل درجة نحو الأحاديث النبوية؛ إذ أثبت التاريخ إمكانية توظيفها توظيفا غير موضوعي والتصرف في بعضها وتحريفها ووضعها. فيجعلها وسيلة مُهمّة لتمرير النسق الثقافي والمشروع الإيديولوجي، لما للأحاديث النبوية من قدسية ومكانة عند الجماهير العظيمة التي تفتقد أسس المعرفة اللازمة للتحليل والنقد، وتغيب عنها القدرة على التمييز بين الحديث الصحيح والحديث الضعيف والحديث الموضوع، وفهم مضامينها ومقاصدها الخفية. فيعمد إلى إسناد الوظيفة التأثيرية إلى الرسول المحدد الأبرز للوقع، ليُعجّل بتحقيق الهدف الذي يمكن أن يكون أخلاقيا أو سياسيا أو اقتصاديا... ثم يعزّز السند بشخصية تاريخية توهم بمصداقية المتن، فيختارها من فضاء الرسول ممثلة في زوجته عائشة. ولا يخفى ما لهذه الشخصية الاعتبارية من سلطة معنوية تؤثر في المتلقي وتتحكم فيه، ومنه المثل الذي

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

نقله الماوردي ونصّه: «روت عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «اطلبوا المعروف من حسان الوجوه»»،[١٢:ص٧٥] (ضعيف، أخرجه الترمذي رقم ٢٦٨٨) ثم لا ينسى أن يشير في الهامش إلى أن هذا الحديث ضعيف. وإن كان الجزء الأول من الحديث يتوافق مع المبادئ العامة للإسلام إذ الدعوة صريحة إلى التزام المعروف المحقق لتوادد الناس وتقاربهم، فإنّ الجزء الثاني منه يعارضها، ويقر الحديث تمايزا انطباعيا بين الأفراد لأنه يقوم على جمال المظهر الذي لا يمكن أن يكون مبدأ عادلا يفاضل بين الأفراد كما تفاضل التقوى، لذلك دعا إلى رفض هذه المقاييس الشكلية التي يعمل النسق على تمريرها عبر قناع ديني مقدس يعكس توجها مزدوجا لتشويه الدين ومحاولة خلخلة أسسه العادلة والعمل على تقويض مشروعه أولا، وتوجيه المتلقي المسلم والتحكم في سلوكه، وصرفه عن أمور دينه ودنياه إلى قضايا مفتعلة ثانيا، فتنتشر البدع والمبادئ المخالفة لروح الإسلام والمناقضة لما جاء في الأحاديث الصحيحة، إنّه مشروع نَسَقي يهدف إلى إفساد الدين وتشويه الإسلام في إطار عام يتميز بالصراع بين الأديان والإيديولوجيات المتباينة، ويعكس أهداف الشعوبية التي تسعى إلى تقويض نظم الحكم وضرب مكونات الدولة، وتُعاضدها في ذلك المصالح الشخصية الضيقة التي تجعل المنافقين يتحايلون باسم الدين لتحقيقها.

لا يكتفي النسق بتكريس التفرقة الاجتماعية على أساس جسدي فقط، بل يعمد إلى التنفير من الحياة الدنيا، وزرع الخوف من المستقبل حتى يتخلى الإنسان عن خلافته في الأرض في انتظار النهاية الحتميّة، فتسود سياسة التواكل المؤدية إلى تراجع مكانة الفرد المسلم والمجتمع وتراجع مكانة الدين. ويتجلى ذلك في الحديث الضعيف التالي: «روى حُميد الأسلمي عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدركني زمان ولا أدركه: لا يتبع فيه العالم، ولا يستحيى فيه من الحليم، قلوبهم قلوب العجم، وألسنتهم ألسنة العرب».[١٢:ص١٤٥] (ضعيف، ابن حنبل أخرجه في مسنده(٥: ٣٤٠)). فيجعل الصراع والخوف مَنْهَجَي حياة.

ويحضر في حديث آخر مَثَلٌ فيه إقرار بقيمة التوبة طريقا للغفران. ولكنه لا يؤكد على الأعمال المؤدية إليها، بل يقتصر على الحالة الجسدية التي تعكس خشية الله تعالى. يقول الماوردي: «روى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا اقشعرّ جلد العبد من خشية الله عزَّ وجلَّ تحاتت ذنوبه كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة ورقها»».[١٢:ص١٢٥] (ضعيف أخرجه البيهقي في الشعب ١: ٤٩١ رقم ٨٠٣) فينكشف الاستهتار بالمسؤولية في الدنيا عملا صالحا والتزاما من أجل نيل الثّواب، وتطلب التوبة بالتمني دون فعل صالح يُؤدي إليها. وفي حديث آخر موضوع يصل برّ الوالدين بإكرام الشعراء؛ «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أراد برّ الوالدين فليعط الشعراء»».[١٢،ص١٢٨]، (موضوع، ابن الجوزي، الموضوعات ١: ٢٦١) وهي محاولة للرفع من مكانة الشعراء في ظل تراجع نفوذهم بفعل محاربة الدين للعطايا والتكسب بالشعر. ويعمل على التأثير اجتماعيا ودينيّا من أجل استرداد هذا المكسب المفقود. لقد اقتصر النسق على الأحاديث الضعيفة والموضوعة لتحقيق الأهداف غير المشروعة، وهي أهداف تتعارض مع القيم الدينية والأخلاقية. ومن هذه الأحاديث ما يميز بين الناس تمييزا غير موضوعي يتعلق بالجنس والسن، فقد «روى مصعب بن منظور عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النساء حبائل الشيطان، والشباب شعبة من الجنون»».[١٢:ص١٨٥] (ضعيف، أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» عن زيد

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

بن خالد الجهني، ضعيف الجامع الصغير ٣: ٢٥٥ برقم٢٤٢٧)، وهو تمييز جندري وزمني يتعلق بالسّن، ويعكس ثقافة سائدة تقوم على علاقة عمودية تعد الذكر كاملا مبرّأً من الأخطاء، والأنثى ناقصة خطّاءة مُدنِّسَة للشرف، وتعد الكبير كاملا ومتوازنا، والصغير ناقصا ومضطربا. إنها مبادئ لا تجد لها صدى في الدين أو في أحكام العقل السليم. وظل وصف المرأة ملازما للصورة الذهنية التي تشكلت عنها في الثقافة العربية، فقد ارتبطت في المخيال الجمعي بمفاهيم الفشل والخسارة، كما يتجلى في المثل القائل: «طاعة النساء ندامة»،[١٣:ج٢،ص٢٤٣] والذي يختزل المرأة في دور سلبي يجعل منها سببا للخيبة والخذلان. هذا التصور لم يكن عارضا، بل تجذر عبر العصور، واستمر أثره حتى حين ظهرت نماذج نسائية أثبتت جدارتها في العصور المتأخرة، إذ غالبا ما عُدت استثناء نادرا يُحفظ ولا يقاس عليه.

وتؤكد أحاديث أخرى ضعيفة أو موضوعة هذا التّوجه الثقافي غير المنطقي الذي يُقيّم فيه الإنسان تقييما جسديا لا يمتّ بصلة لأصول العدل الإلهي ومنه قوله: «روى الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تزوّج ذات جمال ومال، فقد أصاب سدادا من عوز»».[١٢:ص٢٠٩-٢١٠] (ضعيف، أخرجه ابن النجار عن ابن عباس بلفظ «من تزوج امرأة لدينها وجمالها كان له في ذلك سداد من عوز» كنز العمال١٦: ٣٠١برقم٨٨٥٤٤). فتصبح الحياة أحادية الجانب مادية خالصة، تُنزع منها القيم الإنسانية الفاضلة. وتتحوّل مشروعا ربحيا يعكس عقلية متغلغلة انحرفت بالإنسان، وجعلته آلة جشعة لا تهتم بالقيم والأخلاق التي يعجز الإنسان عن اكتسابها لأنها هبة ربانية مطلقة؛ فقد «رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الأخلاق بيد الله تعالى، فمن شاء أن يمنحه منها خلقا صالحا فعل»»، [١٢،ص٢٣٦]؛ (ضعيف أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة. قال الهيثمي: فيه سلمة بن علي، وهو ضعيف، مجمع الزوائد ٨: ٢٠). وهو ما يعكس توجها فلسفيا دينيا ينفي مسؤولية الإنسان، ويجعله كائنا مُجبَرا مسيّرا غير مخيّر تنتفي مسؤوليته عن أفعاله، فيصبح متواكلا ويتخلّى عن رسالته، ويخضع للسلطة باختلاف أنواعها ومصادرها، وهو ما يتعارض تماما مع مبدأ الحرية والمسؤولية. وتتحول الدنيا إلى مصدر بلاء وشقاء، لا يجد الإنسان فيها مستقرا، يقول أبو نواس: [الطويل]

«إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ».[١٤:ص٢٧]

فيتقبل الحياة وإن سيطرت عليها سلطة ظالمة، لأنها في نظره لا تستقيم دون معاناة، ذلك ما زرعه النسق الثقافي في الإنسان. وقد وظّفت الإيديولوجيا الأحاديث وحمّلتها من الأفكار والقيم ما لا يُحتمل حقيقة حتى تضمن تغلغلها، وبذلك تضمن نجاح مشروعها.

ويوظّف النقد الأخلاقي ليؤكد مكانة الشعر فيربط الشعر بالصدق، وهو مشروع نقدي غير موضوعي يحاول التضييق على الظاهرة الفنية، فيقلّص أفق الإبداع، ويمنع التحرر المنشود، إذ يعمل هذا الطرح على احتواء الإنسان وتكريس النمطية، ويقتل التفرّد والخصوصية وكل محاولة للخلق والتجديد.

وتعد مقولة «إن من البيان لسحرا»[١٥:ص١٨] من أشهر ما قيل في بلاغة الكلام، وقد وردت على لسان الرسول، وهي تعبير عن الــتأثير العميق للكلمة البليغة، إلا أن البعض انحرف بمعناها، وأساء توظيف لفظة "سحرا" في هذه المقولة، واستخدمها استخداما غير موضوعي لضرب الأدب والتقليل من شأنه ورفضه تماما،

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

متغافلا عن أن السياق الأصلي للمقولة كان في مدح البلاغة والتأثير الإيجابي للكلام الفني وإعلاء شأنه، و يتنافى هذا الطرح مع ما عُرف عن الرسول من محبة للشعر الذي يوافق القيم الإسلامية ويُعبر عن تطلعات الأمة، ويرفض كل ما يحط من قيمة الإسلام والمسلمين أو يحبط عزائمهم. وقد كان للرسول شاعر مقرّب التزم بتعاليم الدين وقضاياه؛ وهو حسان بن ثابت الذي عرف بشاعر الرسول. وكان لسانا يدافع عن الإسلام ويجلي محاسنه بالشعر. إن إغفال هذا الجانب من المقولة يُعدُّ تحريفا لمعناها الحقيقي، ويظلم الدور البناء الذي يؤديه الأدب في توجيه المجتمعات وإلهامها في بناء أهدافها وتحقيق أحلامها، ولا يعني هذا أن كل الشعر قد وافق هذا الطرح، بل نجد شعرا مقابلا حارب الإسلام وسعى إلى تقويض مشروعه.

ويتدرّج الماوردي نزولا في توظيف مصادر النّسق الثقافي والإيديولوجيا لينزل درجة نحو حكم الحكماء اليونانيين لما عرفوا به من حكمة تجعل وقع كلامهم أشد تأثيرا في المتلقي إذ يلقى القبول والترحيب، يقول: «وقال الحكيم اليوناني: انتفعت بأعدائي أكثر مما انتفعت بأصدقائي؛ لأن أعدائي كانوا يعيرونني بالخطأ وينبهونني عليه، وأصدقائي كانوا يُزيّنون لي الخطأ ويشجعوني عليه»،[١٢:ص١٧٤] فيعمّم هذه الحكمة ولا يُنسّبها، لينقاد المتلقي ويخضع إلى الحكم. ويؤدي ذلك إلى توتر العلاقات الإنسانية من تعميم هذه الأحكام ونفي مسؤولية المتلقي وإرادته في الفعل والاختيار. ثم يجعل الإنسان مصدرا للخيانة والعداوة ويصوّره عديم فائدة؛ يقول ابن الزبرقان المغربي: [الطويل]

«وَعَلَّمَنِي صَرْفُ الزَّمَانِ وَأَهْلُهُ بِأَنَّ اقْتِنَاءَ النَّاسِ شَرُّ الْمَكَاسِبِ» [١٤:ص١٢١].

فإذا الإنسان عدوّ أخيه الإنسان مطلقا، لا يحقق وجوده التام إلّا حين يُقصى الآخر.

ويتأكد طبع اللؤم في الإنسان في مقولة: «وجدت الناس اُخبُرْ تَقْلُهْ»[١٦:ج٢،ص٥] ومعناه جرب الناس، فإنك إذا جربتهم تركتهم، وهو مثل يضرب في ذم الناس وتأكيد سوء معاشرتهم. ويتحول الصراع بين البشر إلى حقيقة مطلقة، تتجاهل ما عرفوا به من ود وتكامل يُؤكّد طابعهم الاجتماعي، وأثبتته الحكمة الإلهية في جعل الناس مختلفين شعوبا وقبائل دون تفرقة ودعاهم إلى التعارف والتكامل. ويتأكد معنى الخسة في قوله: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»،[١٣:ج٣،ص٣٢٢]، فيطغى طبع السوء على الإنسان ويندر فيه الخير. ويوجه هذا التصور المتلقي ويجعله حذرا ممتنعا عن التعاون مستعدا للمواجهة مقرا للصراعات ومتبن لها. وتستمر المدونة في تحذير الإنسان من أخيه الإنسان، وتدعوه إلى ترك الطيبة، يقول المثل: «حُسن الظن ورطة»،[١٣:ج١،ص٣٢٩] فيحول القاعدة استثناء ويجعل الاستثناء قاعدة، مهيئا لمجتمع الصراعات والانحرافات. وإن تغافل الإنسان عما جاء في المثل من دعوة إلى رفض الآخر فإنه يجد نفسه أمام المصير المحتوم الذي يجازي الإحسان بالإساءة التي عبر عنها المثل القائل: «أتق شر من أحسنت إليه».[١٣:ج١،ص٢٢٠] وإن كانت الصراعات حقيقة لا يمكن إنكارها فإنهالا يمكن أن تصبح واقعا مطلقا يخفى تعاون البشر وتكاملهم، وبالتالي تتكشف خطة الإيديولوجي لضرب القيم، ومنع التحضر مطلبا أساسيا في استقرار الحياة، ويفتح آفاق الاختلاف بين البشر الذي يبلغ حد الحروب الطاحنة.

ويهدف الثقافي إلى تكريس السلطة القائمة في كل أبعادها، خاصة منها السلطة السياسية التي توظّف كل أدوات التسلط، متجاوزة المنطق والمعقول تحقيقا للمصالح الذاتية الضيقة، ولا أدل على ذلك من المثل: «المُلك

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

عقيمٌ»،[١٥:ج٢،ص٢٠١] فتجبر السلطة أصحابها على التخلص من المنافسين وإن كانوا من خاصة الخاصة أو من الأبناء. فيكشف حب السلطة عن أنانية مطلقة، تُعْدِم كل القيم الإنسانية، وتتحول وهما قاتلا مؤذنا بالخراب.

وتعمل السلطة الثقافية على إخضاع الإنسان المستضعف الذي يلجأ إلى التصعيد النفسي ليُفرّج عن كربه، ويُخفّف من وطأة التسلط الذي يلقاه، وينشئ صراعا متخيلا ينتقم فيه من الحاكم، ويتجلى ذلك في قوله: «دماء الملوك أشفى من الكَلَبِ».[١٧:ج٢،ص٨١] فيسيطر الخلاف على الحياة السياسية والاجتماعية، وتتحوّل العلاقة إلى صراع دائم معلن وخفي، وينتج عنه تقسيم المجتمع إلى سيد وعبد «أُعطِي العبدُ كُراعا فطلب ذِراعا».[١٨:ص١٤٩] فتُنتقى الألفاظ الدالة على أقصى درجات الاحتقار والإذلال، فيرى السيد القليل، الذي لا يسدّ الرّمق، المُقدَّم للعبد كثيرا يرضيه، ولا يجوز له الاعتراض عليه، كل ذلك في ظل علاقة مادية ومعنوية يسيطر عليها السيد ويوجّهها، وتجعل العبد آلة طيعة مجرّدة من كل قيم الإنسانية، فتبرّر الطبقية الاجتماعية، وتخدم الطبقة المسيطرة، وتجعل نظام الانتهازية والاستغلال ثابتا لا يزول. ويتأكد هذا المعنى في قول المتنبي: [البسيط]

«لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ».[١٤:ص١١٧]

فيكرس التسلط والظلم، ويبرّر الاعتداء بحجة التراتبية القبلية والاجتماعية التي تشرّع لهذا النوع من العلاقات الاستبدادية. ويتوهّم أنها الحقيقة المطلقة التي لا تقبل المراجعة أو النقد، ويبلغ الاستبداد أقصاه حين يُنكر على المظلوم الرفض والمقاومة؛ مقاومة العنف المُسلط عليه إن كان عنفا ماديا أو معنويا. يقول المثل: «أمكرا وأنت في الحديد»؛ [١٥:ج١،ص٣٤] وهو مثل يضرب للرجل يحتال وهو أسير ممنوع، ويسعى إلى تجريده من حقه الشرعي في الدفاع عن نفسه والتعلق بالحرية والحياة، ويصبح منعا للإنسانية القائمة على مبدأ شرف المحاولة والمقاومة، فينكر الحرية ويُثبّت سُلطة القوي المتجبر. وتبلغ الإيديولوجيا أشدها حين تتبنّى الضحية هذه الفكرة وترفض التغيير. وفي إطار تعكير صفو العلاقات الاجتماعية وبثّ الرهبة بين الناس يقول المثل: «الناس ما استغنيت كنت أخا لهم»،[١٩:ص٣٤] وقريب من هذا المعنى القول: «عزّ الرجل استغناؤه عن النّاس»،[١٣:ج٢، ص٢٩٧] فيدعو إلى الاستغناء عن الناس، ويجزم بأن الشرّ والخيانة والانتهازية ليست سمات عابرة في الإنسان، بل هي طباع راسخة تلازمه كظله ولا تنفك عنه، فلا إمكانية للعيش معتدلا متوازنا متعاونا مع غيره، فيغلب عليه الطابع العدائي التسلطي، ولا يمكن أن يكون إلا مُسْتَغِلّا أو مستغَلًّا، ويتأكد هذا المعنى في مثل: «الحليم مطية الجهول»،[١٦:ج١،ص٤٠٨] فيقرّ الصراع بين الناس ويقرنه بالاستغلال، ويجعل الكريم مطية كأنه راحلة يركبها الجهول الذي بالغ في الظلم والاستبداد، نافيا علاقة التكامل بين الإنسان وأخيه الإنسان ويجعله ذئبا لأخيه الإنسان. وهو المعنى الذي يؤكّده أبو الفتح البستي في قوله: [البسيط]

«من عاشر الناس لاقى منهم نصبا لأن طبعهم ظلم وعدوان».[١٤:ص١٢٠]

فيصور الإنسان محبا للذل فاعلا وإلى تقبله ضحية، ويؤكد اجتزاء هذا البيت من القصيدة الخاصية الانتقائية للنسق إذ تدعو القصيدة في مجملها إلى القيم الفاضلة عكس ما يصوره هذا البيت المجتزأ. ويحثّ النسق على تشديد هذا الصراع ويستهدف هذه المرة العنصر الغريب، في مخالفة صريحة لقيم العرب التي تدعو إلى حسن الضيافة والكرم، يقول المثل: «على غريبتها تحدى الإبل: أي تضرب»،[١٧:ج٢،ص١٦٦] وقوله: «ضربه

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

ضَرب غرائب الإبل»،[١٥:ج٢،ص٧] فيثبت الصراع في الذهنية العامة، ويتأكد معنى التسلط في قوله: «جوّع كلبك يتبعك»[١٩:ص٦٨]، الذي يشترك في المعنى مع ما جاء في قوله: «اضرب البريء حتّى يعترف السّقيم»،[١٣:ج٢،ص٢٣٢] فيستقر طابع اللؤم في الإنسان الذي لا ينضبط إلّا بالتّسلط والإذلال. ولا تقوم العلاقة على التّكامل والتّعاون؛ «ما قُرعت عصا بعصا، إلا حزن لها قوم وسر آخرون: أي ما حدثت حادثة إلا وساءت قوما وسرت قوما»،[١٧:ج٢،ص٣٢٧] بل هي علاقة تضادية مطلقا، قوامها الصراع من أجل الفوز بسعادة الحياة التي لا يمكن أن يشترك فيها الطرفان؛ يفنى الطرف الأول ليبقى الطرف الثاني ويشقى الأول ليسعد الثاني. وتعمق لغة المجاز المأساة حين تتخذ الحيوان مثلا ويمثل للإنسان بما هو أدنى منه مكانة، فتنكشف حقيقة المشروع الثقافي الانتهازي الذي يقطع مع الموضوعية والإنسانية الحقيقية. وتتأكد الانتهازية في تصنيف الناس إلى كرام ولئام بالطبع، ورفض كل تغيير يطرأ على هذا التصور؛ فالكرامة صفة مفقودة والمذلة صفة أزلية «إن الهوان للئيم مرأمة».[١٣:ج١،ص٢٣]. ووجد هذا المعنى صداه في الشعر العربي ودليله قول المتنبي: [الطويل]

"إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا".[٢٠:ص٣٨٣]

ويؤكد صفتي الاستغلال والتحيل المتجذرة في البشر، ويجعل غايتهم استغلال الآخرين استغلالا مفرطا، يقول المثل: «فلم خلقتُ إن لم أخدع الرجال»،[١٣:ج٢،ص٣٧٩] وتنكر بعض الأمثال على إنسان تعامله السليم مع غيره وتدعوه إلى استبداله بالمواجهة، التي لا ينصح باستبدالها إلا في الضرورة القصوى التي يخشى فيها مضرة تلحقه، يقول المثل: «استر عورة أخيك لما يعلمه فيك»،[١٣:ج٢،ص١٠١] فتصبح المنفعة الذاتية هي المحرك الوحيد للعلاقات بين الناس، فدفع الأذنى عن الآخر لا يجوز إلا إذا اقترن بدفع الأذى عن الذات، فتطغى الأنانية في أبشع ملامحها، وتمنع سمة التغيير الذي جبل عليها الإنسان ليصنع الحضارة ويرتقي بالإنسانية عامة.

تتحكم الأمثال المضمنة في الشعر ديوان العرب في الأذواق، وتحدّد قيم المجتمع، وتكشف أصنافا مخفيّة من الإيديولوجيا التي تبرّر السلوكات السلبية من قبيل قوله شعرا [الرّمل]:

«لَنْ يَنَال العُذْرَ قَوْمٌ أَجْرَمُوا ثُمَّ قَالُوا: سَبَقَ السَّيْفُ العَذَلْ».[١٢:ص١٧١]

فالمثل وإن استعمل كاملا لا يمثل نسقا خفيا، بل هو في الحقيقة رفض للتبرير. غير أن النسق يجد منفذا حين يستعمل المثل مجتزأ من النص الأصلي «سَبَقَ السَّيْفُ العُذَلْ»،[١٨:ص٤٩] فيُفهم على أنّه تبرير للتسرّع وحجّة لارتكاب الأخطاء، ويصبح عذرا مشروعا يُجيز الأفعال غير المباحة، ويُؤسس لثقافة تبرير الأخطاء التي تقلب القيم فتُجيز الرديء وتدعو إليه. ويتأكد هذا المعنى في السعي إلى خلاص سيئ الأخلاق في قوله: «إذا كنت كذوبا فكن ذكورا».[١٧:ج١،ص١٢٦] وقريب من هذا المعنى قوله: «الليل أخفى للويل»؛[١٣:ج٣،ص٩٧] ومعناه افعل ما تريد ليلا فإنه أستر لسرك. ويصبح المثل بحثا عن نجاة الكاذب واللص لا إدانة لهما، وهو ما ناقض الأهداف الأصيلة التي من أجلها كان المثل الهادف إلى تقويم السلوك وتهذيبه.

وينتقل النسق من تبرير العنف المعنوي إلى تبرير العنف المادي وجعله أسلوب حياة، ويتدرّج من حيّزه الاجتماعي الضيق: الأهل إلى الفضاء الاجتماعي العام: المجتمع، ويستحيل أداة بيد السلطة الغاصبة، ويستسيغه المستضعف على الرغم مما فيه من هتك لإنسانية الإنسان وكرامته، فيقول: «علّق سوطك حيث يراه أهلك»،[١٩: ص١٠٤] فهنا تغيب إرادة الإصلاح باللين ومخاطبة العقل والتزام الأخلاق الفاضلة، ويحضر العنف داخل الأسرة

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

لينتج علاقات متوتّرة، تطبع الثقافة التي تصبح ميّالة للعنف، مشرّعة له، ويصبح العنف قاعدة ملزمة. ويبرز استهداف العلاقات الاجتماعية في قوله:«إن الحماةَ أولعت بالكنة»،[١٥:ج١،ص١٠٧] فيهيئ لعلاقة صدامية، جعلها حقيقة مطلقة، جذرها في المجتمع وعززها، متناسيا طابع الود والسكينة المتأصل في العلاقات الأسرية القائم على الاحترام والتكامل، وهو الطرح الذي يغيب عن بعض الأمثال والحكم كقوله: «بينهم داء الضرائر»،[١٥:ج١،ص١٨١] الذي يؤكد صراعا يطغى على الأسرة والمجتمع عموما. ويؤكده المثل الذي مفاده: «تباعدت العمة من الخالة»،[١٣:ج١،ص١٩٩] فيعمل الثقافي على ضرب العلاقات الأسرية، واستهداف العلاقات الاجتماعية، فينتج مجتمعات متناحرة، تسلب الحياة معنى السكينة والهدوء، وتقحمها في صراعات هدّامة، تتلاشى بمفعولها مقومات المجتمعات المستقرة، وتحل بدلا منها عوامل الفرقة والاختلاف.

ويحضر العنف في الثقافة العربية أيضا بشكل غير صريح حين يغيب المنطق والحق، فينصر الظالم: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»،[١٧:ج١،ص٣٩٢] ويُروّج لنصرة الظالم وتبنّي الظلم. ويتحوّل المجتمع إلى حلبة صراع وساحة حرب، تقوم على الحميّة القبلية المنتجة لمجتمع العنف. ويحلّ الاندفاع والتّهوّر مكان التعقل والتسامح، وينكشف ذلك المعنى حين يُذكر الخبر كاملا، فقد «رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تكلم بذلك، فقيل له: هذا ينصره مظلوما فكيف ينصره ظالما؟ فقال: يكفه عن الظلم»،[١٧:ج١،ص٣٩٢] وهو المنطق العقلي السليم الذي يدعم القيم الإنسانية، ويجعلها هدفا أسمى في بناء المجتمعات المتوازنة والواعية، والتي تعمل على استبعاد النسق الثقافي والوهم الإيديولوجي. الراغب في ديمومة الصراعات وتأكيد جشع الإنسان ونهمه واستغلال أخيه الإنسان بأمثلة وحكم كثيرة منها «أحق الخيل بالركض المُعار»،[١٣:ج١،ص٣١٢] فتتأكد الأنانية محددا جوهريا للإنسان في علاقته بغيره.

وتعمل الأمثال على جعل العلاقات الاجتماعية مضطربة قائمة على الصراع والنزاع، يرى فيها الإنسانُ الآخرَ عدوا مخادعا، فيحذره من فعل الخير والتواصل مع الآخرين والتعاون معهم، مقرا بأنانية الإنسان وأصوليته كما يتجلّى في المثل «سمّن كلبك يأكلك»،[١٥:ج١،ص٤٢٨] الذي يقر بالخيانة وسوء الجزاء، وينفي إمكانية المكافأة ويرسخ الغدر.

وتتكاثف الأمثال التي تحط من إنسانية الإنسان موظفة ألفاظا ومصطلحات تجرده من كرامته وتنزع عنه آدميته، إذ يُستعار فيها عالم الحيوان لتصويره، فيشبهه تارة بالحمار: «أجهل من حمار»،[١٥:ج١،ص٢٧٠] وأخرى بالكلب: «أجع كلبك يتبعك»،[١٦:ج٢،ص١٠٢] ومرة بالغراب: «أشأم من غراب البين»،[١٥:ج١،ص ٤٥٧] فيستلهم من الطبيعة أكثر عناصرها خسة وينسبها إلى الإنسان لينزل به من مقامه الإنساني إلى مراتب أدنى، متناسيا ما تحمله الطبيعة من دلائل إيجابية ترفع الهمم وتحفز الإنسان على الفعل والتقدم والتحرر من كل القيود. وهو ما يكشف دهاء النسق الثقافي المستهدف للإنسانية وللحضارة. وتنتقي الأيديولوجيا من بيئة العربي ما اتّصل بالخسّة والخيانة تحقيقا للوقع وتأكيدا لوثوقية المتلقي في الأمثال، حيث استشهدت بالضبع وأكدت على همجيته وشراسته، وجعلت الإنسان يبالغ في حذره من الإنسان: «كمجير أم عامر»،[١٧:ج٢،ص٢٣٢] وإن صح المثل أحيانا، فإن ذلك لا يعني تعميم الحكم ونفي صفة الصدق والوفاء عن الإنسان مطلقا مثلما حاول النسق الثقافي بثّه تكريسا للصراع والفرقة، وتسيطر أطراف سياسية وثقافية معينة دون مواجهة ودون مراجعة. ويوغل

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الإيديولوجي في إقصاء العقل وإذلال الإنسان، فيحرض الإنسان على الإنسان مكرسا التخويف والإذلال: «الثور يضرب لما عافت البقر» [١٥:ج١،ص٢٣٣] وهو مثل يجيز أن يؤخذ الرجل بذنب غيره، في تناقض تام مع مبادئ العدل والفطرة السليمة.

ويحاول النسق منع التغيير وتثبيت الإنسان على حال واحدة، كقوله: «أدوم أخلاق الفتى ما نشأ به» [١٩: ص٧]، ومعناه أن الأخلاق التي ينشأ عليها الفتى تلازمه ولا تتغير، ولا تخفى المبالغة في هذا الحكم المُعمم، التي تمنع نهوض الإنسان بنفسه، وتقرّ بعجزه عن التغيير، ويصبح بهذا المعنى جامدا تابعا لكل سلطة تسعى إلى التحكّم فيه، ويحافظ على الموروث «من أشبه أباه فما ظلم» [١٩:ص٨٣] لتستلب شخصيته وإرادته، وينخرط في دغمائية ترفض الاختلاف، وتمنع التغيير الذي يُمثّل سمة من سمات الإنسان الحرّ المتطوّر، وتقرّ بالجمود وانتفاء الإرادة، فيسهل التحكم فيه وتوجيهه، ويدخل كل إبداع جديد في باب: (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار).

ويبلغ العمل على تشيئة الإنسان أقصاه في قوله: «استراح من لا عقل له»، [١٥:ج١،ص١٢١] فيصل الراحة بفقدان العقل وإقصائه، وينزع من الإنسان هبة إلهية اختص بها دون سائر المخلوقات، ويمنعه من الخلافة في الأرض. إنه تطاول على الإرادة الإلهية وقبر للإنسان الفاعل المتحرر ليجعله منقادا ومنهزما، يتوهم الراحة في التحرر من التكليف متناسيا وظيفته الوجودية التي خُلق من أجلها والتي تستمد مشروعيتها من العقل صانع المعجزات. ويؤدي إقصاء سلطة العقل إلى إحلال سلطة الخرافة والأسطورة بديلا منها، فيرتهن الإنسان للصدفة والوهم الذي يقصى العقل والإرادة والذي يعبر عنه المثل «أَمْحَلُ من تَعْقَاد الرّتم» [١٥:ج٢،ص٢٣٥] وقوله «اذكر غائبا يقترب»[١٥:ج٢،ص١٢] إذ ينفي دور الإرادة الفاعلة، ويدعو إلى الاتكال على المصادفة والتمني دون سعي.

ولا يخفى فيما سبق دور السلطة السياسية والنخب الثقافية التي تُصدر مثل هذه الأحكام والقيم السلبية لتأكيد سيادتها بفرض سلطة المعنوي بديلا من المواجهة والعنف المادي. ويستمر تهميش الإنسان ليُجرد من أحد مكوناته الأساسية ممثلا في الجسم، يقول: «أنت بالنفس لا بالجسم إنسان»،[١٩:ص١٠] فيعد الجسم عنصرا غير لازم يشوّه إنسانيته، ويصلها بالمادة مصدر الرذيلة والفساد؛ إنّه حكم اختزالي يمنع الإنسان من حاجياته المادية والطبيعية التي تمثل حقا مشروعا يطالب به، ويثور من أجله حين يعي حقيقته المتكاملة التي تجمع النفس والجسم ولا يلغي أحدهما الآخر، وبالقدر الذي يهذب الإنسان الروح يكون قد هذب الجسم ليحقق التوازن والتكامل.

وتتسرب أمثال أخرى فتسيئ الجماهير فهمها، وتنتشر دون مراجعة الأخطاء وتصويبها، فتصبح انتقائية تُوظف لغير ما وضعت له في الأصل، من ذلك «الطيور على أشكالها تقع»؛[١٩:ص١١] ومعناه عام مطلق، مفاده أن الأشياء المتشابهة تنجذب نحو بعضها البعض دون تحديد صفة الشيء وماهيته، غير أن الرأي العام انزاح بهذا المثل، وجعله يعبّر عن انجذاب السيئ إلى السيئ، وأخرج من تصورنا الأشياء الحسنة، متأثرا بذهنية تشاؤمية بامتياز، راجت بقوة عند المستضعفين ثقافيا.

وتتأكد ذهنية التسلط التي تهدف إلى تسكين الإنسان وسلبه إرادته بمحاولة منعه من إدراك حقيقته الفعلية وقدرته الخارقة على الفعل فيعيش كائنا تابعا مستلبا، لا يسعى إلى التغيير والفعل، بل يرجع ما يصيبه شرا أم خيرا إلى عوامل خارجية لا يستطيع تغييرها، وكان من تبعاته أن استفحل التواكل والركود المتجذّر في عقلية

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الاستسلام والتشاؤم والتطير التي تسيطر على الذهنية العربية، فيقال: «أشأم من غراب البين».[١٧:ج١،ص١٨٣] وأسهمت شدة انتشار هذه القيم الخرافية غير العقلانية في صياغتها شعرا كقوله:[الكامل]

«لَيْتَ الْغُرَابَ غَدَاةَ يَسْحَبُ دَائِمًا كَانَ الْغُرَابُ مُقَطَّعَ الْأَوْدَاجِ»،[١٧:ج٢،ص١٨٣]

ليتأكد أثرها الفاعل إذ أصبح قاعدة عامة تحكم المجتمع الميّال للركود والسلبية. وتبرر سيادة السلطة المتجبرة الظالمة المنتجة لهذا النسق، والمانعة لأسباب التغيير والنقد من إغفالها حقيقة هذا الطائر كما تجلت في الرؤى الثقافية والحضارية التي تناقض الطرح السابق.

وفي محاولة لضرب القيم التي تحكم المجتمع وتنظمه، لجأ الإيديولوجي إلى الجمالية الفنية ليتخذها قناعا تُمرّر من خلاله القيم الدخيلة التي كرستها الشعوبية، «أشهى من الخمر»،[١٧:ج١،ص ١٩٩] لتنتج مجتمعا غير مستقر، يعيش صراعا داخليا بين قيم وافدة وقيم أصيلة تؤدي إلى انقسامه، وتمهّد لسيادة الوافد، وبلغ الصراع أوجه في العصر العباسي حين تغلغلت قيم الشعوبية التي أصبحت واقعا جليّا أضعف القيم الأصيلة وأوهن الدولة، فانصرف المجتمع إلى اللهو والمجون، وتعلق بهامش الحياة بعد أن تخلى عن الجوهر الفعلي للإنسان والإنسانية المتصل بسلطة العقل والمعترف بقدرة الإنسان على الخلق والإبداع. وتلوح في أمثال أخرى نزعة نحو اللهو والمجون، وإرجاء ما فيه نفع للناس، إذ تُنتزع من سياقها التاريخي وتُسقط على مقامات أخرى لا تناسبها، فتُحرف مقاصدها وتبتذل معانيها في محاولة للنيل من القيم والمبادئ كقوله: «اليوم خمر وغدا أمر»؛[١٥:ج٢،ص٣٣٤] ومعناه اليوم استرسال ولهو وغدا الجد والتشمير، والمثل لهمام بن مرة ونسب أيضا للشاعر الجاهلي امرئ القيس. فأي قيمة للإنسان إن لم يشمر على ساعديه في القضايا الإنسانية وأجلها وانغمس في الشهوات معبرا عن سلوك ساد الشعوب وكان سببا في تراجع مكانتها وجعلها تابعة خاضعة لشهوات النفس وسلطة الآخر المستبد، بعد أن كانت شعوبا متحضرة منتجة للمعرفة والقيم ومؤثرة في العالم، تقوده نحو الرقي والتقدم الحضاري بما ينفع الناس ويحقق كرامتهم وإنسانيتهم.

وإن حاول النسق فرض معاني الأمثال والحكم وجعلها قواعد صارمة تحكم البشر وتُقوّم سلوكهم، فإن التعارض الذي احتملته معاني بعضها أخرجها من طابعها العام ومن إلزاميتها ووصلها بالذاتية والخصوصية التي تصل المثل بالمقام الذي نشأ فيه، ومنه قوله في مثلين منفصلين: «أرسل حكيما وأوصه»،[١٩:ص٣٢] و«أرسل حكيما ولا توصه».[١٩:ص٣٢] ويتجلى التعارض أيضا في إسناد صفات متناقضة لكائن واحد «أفحش من كلب»،[١٣:ج٢،ص٣٨٣] وقوله في مثل آخر «أشكر من كلب»،[١٣:ج٢،ص١٧٢] فيبدو التعارض صريحا، يهدم قدسية المثل وشموليته، ويكشف أن الأمثال وليدة مقامات خاصة نشأت فيها وإن شابهت مقامات أخرى وتطابقت معها فإن ذلك لا يضفي عليها قدسية مطلقة. ويفتح هذا التناقض الباب لفهم حقيقة النسق الكامن وضرورة مراجعة المشروع الثّقافي المتسلط، ونقده والحدّ من سلطته.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

٥ – الخاتمة:

تنتقي الإيديولوجيا الوسائط بعناية فائقة لإنفاذ مشروعها، فتبدأ بالمقدس الديني ممثلا في الأحاديث النبوية ثم حِكم الحكماء ثم الأدب شعرا ونثرا وصولا إلى الأمثال والحِكم الشعبية، وتحرص على تخير مصادرها، ويؤدي وقعها الشديد إلى تسرب النسق دون وعي بحقيقته التي تحجبها جمالية المثل والحكمة والسند الذي نقلهما، فتؤدي إلى تسكين الإنسان فردا وجماعة دون مواجهة. ويضاف إلى ذلك اعتماد التزييف والانتقاء فيبدو ظاهرها دعوة إلى المثل والقيم العليا في حين يُفَخَّخُ الباطن بالإيديولوجيا والأنساق المضمرة التي تسعى إلى تشيئة الإنسان. ويتأكد خطر النسق في شدة تداوله وسرعة انتشاره عبر وسائط فنية جمالية ذات معنى صريح، تسحر القلوب، وتستهدف العموم، وتشد الأذهان، وتزداد فاعليتها من تداول الجماهير هذه القيم شفويا وكثرة توظيفها في الآثار المكتوبة حكمة ومثلا وشعرا حتى ألفتها المجتمعات وأصبحت قيما ومثلا ثابتة يعسر الخلاص منها.

CONFLICT OF IN TERESTS
There are no conflicts of interest

قائمة المصادر والمراجع:

[١] عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، ط١، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٨.
[٢] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط٣، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥.
[٣] صلاح قنصوه، تمارين في النقد الثقافي، ط ١، دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٧.
[٤] عبد النبي اصطيف، ما النقد الثقافي؟ ولماذا؟، فصول، المجلد(٣/٢٥)، العدد (٩٩)، ربيع ٢٠١٧.
[٥] نعيمة بولكعيبات، النسق المضمر في نوادر جحا، فصول، المجلد (٣/٢٥)، العدد(٩٩)، ربيع٢٠١٧.
[٦] ديفيد هوكس، الإيديولوجية، ترجمة: إبراهيم فتحي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠.
[٧] محمد سبيلا (محمد)، عبد السلام بنعبد العالي، الإيديولوجيا، ط ٢، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ٢٠٠٦.
[٨] عبد الرزاق المصباحي، النقد الثقافي من النسق الثقافي إلى الرؤيا الثقافية، لبنان، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع.
[٩] أرثر أيزابرجر، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة وفاء إبراهيم، رمضان بسطاويسى، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣.
[١٠] عمار علي حسن، الأيديولوجيا، ط١، مصر، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧.
[١١] عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، ط ٨، المغرب، المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢.
[١٢] علي بن محمد بن الحبيب الماوردي، الأمثال والحكم، تحقيق ودراسة فؤاد عبد المنعم أحمد، ط١، المملكة العربية السعودية، دار الوطن للنشر، ١٩٩٩.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

[١٣] أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٢٣م.

[١٤] محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، الأمثال والحكم، تصحيح وتعليق فيروز حريزي، دمشق، المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الأيرانية، ١٩٨٢.

[١٥] أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب جمهرة الأمثال، ضبط وتنسيق أحمد عبد السلام، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.

[١٦] أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، تحقيق منذر محمد سعيد أبو شعر، ط١، بيروت – عَمّان، المكتب الإسلامي، ٢٠٠٨م.

[١٧] أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بجيد آباد الدكن، ١٩٦٢.

[١٨] المفضل بن محمد الضبي، أمثال العرب، تقديم إحسان عباس، ط ٢، لبنان، دار الرائد العربي، ١٩٨٣م.

[١٩] محمود إسماعيل صيني، ناصف مصطفى عبد العزيز، مصطفى أحمد سليمان، معجم الأمثال العربية، ط١، لبنان، مكتبة لبنان، ١٩٩٢.

[٢٠] عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq